العلاقات الخارجية للخلافة العباسية
في عهد الخليفة الناصر

بقلم
صادق حسن السوداني
ثانوية النيل للبنين ـ بغداد

أولا : مقدمة عن الخليفة الناصر

قبل الخوض في هذه العلاقات لابد من اعطاء لمحات موجزة عن الخليفة العباسي الناصر لدين الله .

هو ابو العباس احمد بن المستضيء بأمر الله الملقب بالناصر لدين الله . كان نقش خاتمه « رجائي من الله عفوه » . يرجع الناصر في نسبه من جهة ابيه الى العباس عم النبي محمد (ص) ولو اخذنا سلسلة ابائه لوجدنا بينهم اربعة عشر خليفة . اما ام الناصر فهي أم ولد تركية اسمها زمرد خاتون . وقد اثبت لنا التاريخ العباسي وسير الخلفاء العباسيين انهم فتحوا قلوبهم وقصورهم قولا وعملا لكافة العناصر غير العربية وصهرتهم في دولة اسلامية لا تفرق بين اسود وابيض . وهذا ما يؤكده لنا زواج اغلب خلفاء بني العباس بنساء غير عربيات باستثناء الرشيد والسفاح ومن ثم اصبح الزواج بغير العربيات امرا طبيعيا لا شائبة تشوبه ولا غبار يلفه ، جارية تصبح سيدة القصر والخلافة بعد اعجاب الخليفة بها فيتزوجها وتولد . وقد اشتهرت زمرد خاتون بالكرم والبر وتوفيت سنة ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م ودفنت في صوب الكرخ الى جانب قبر معروف الكرخي . وقد اعتقد بعض الرجال خطأ ان قبرها هو قبر الست زبيدة حيث ان بعض الحروف قد مسحت من على القبر ولم يبق الا الزاء والدال فاعتقدوا انه للست زبيدة وذلك لشهرتها وذيوع اسمها .

توفى الخليفة المستضيء في مستهل ذي القعدة من سنة ٥٧٥ هـ / أواخر آذار ١١٨٠ م بعد ان حكم تسعة سنين وثمانية اشهر بين ٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ /١١٧١ ـ ١١٨٠ م . وبعد وفاته قام ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن(*) واخذ البيعة لولده أبي العباس احمد(١) . وابن العطار هو الذي لقبه بالناصر لدين الله وقد تولى اخذ البيعة معه استاذ الدار(**) مجدالدين ابوالفضل بن الصاحب(٢) . وكان عمر الناصر حينذاك في حدود الثلاثة وعشرين سنة حيث أنه ولد في حدود سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م . وقد بايعه حكام أقاليم الخلافة خاصة صلاح الدين سلطان مصر والشام وغيره من امراء الولايات الاسلامية بل خطب للناصر في بلاد الاندلس وبلاد الصين(٣) .

وصف الرحالة ابن جبير الناصر لدين الله الذي شاهده عند وصوله بغداد سنة ٥٨٠ هـ /١١٨٥ م بقوله « ابصرنا الخليفة [يقصد الناصر] بالجانب الغربي [صوب الكرخ] امام منظرته وقد انحدر عنها صاعدا في الزورق الى قصره بأعلى الجانب الشرقي [صوب الرصافة] على الشط وهو في فتاء [من فتي] من سنه ، اشقر اللحية صغيرها كما اجتمع بها وجهه [يقصد انها ملأت وجهه] حسن الشكل جميل المنظر ابيض اللون معتدل القامة رائق الرواء سنه نحو الخمس وعشرين سنة »(٤) .

(*) يعتقد الدكتور مصطفى جواد ان ديوان الخراج أصبح يسمى في عهد الناصر (المخزن) وصدر المخزن او صاحب المخزن كوزير المالية اليوم . انظر مصطفى ، فصل ضمن كتاب الجامع المختصر لابن الساعي ج ٩ ، ص : يب .

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٢٧٦ ؛ وانظر ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ح٢ ، ص‌ص ٨٩ـ٩٠ .

(**) استاذ الدار شخص يتولى شؤون دار الخلافة ونفقاتها . انظر مصطفى جواد ، المصدر السابق ، ص : ض .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١٠٨٩ .

(٣) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٤٥٠ .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٠٣

اما صفاته الخلقية فقد اختلف المؤرخون فيها فقد وصفه ابن الساعي « انه كان صاحب فكر صائب وخداع وحيل شجاعا في الحروب »(٥) . ووصفه السيوطي بأنه كان « شهما أبي النفس حازما مقداما مهيبا ذو دهاء وعقل وفطنة واقدام »(٦) . ويصفه ابن الطقطقي بأنه من افاضل الخلفاء واعيانهم بصيرا بالامور مجربا سائسا مهيبا مقداما عارفا شجاعا متأيدا حاد الخاطر والنادرة متوقد الذكاء والفطنة بليغا غير مدافع عن فضيلة علم ولا نادرة فهو يفاوض العلماء مفاوضة خبير ويمارس الامور السلطانية ممارسة بصير(٧) . وفي حين يصفه ابن الساعي بالكرم والسخاء وان عطاؤه كان كسيل البحر(٨) . يصفه ابن الشحنة بالبخل(٩) . اما ابن خلدون فيراه متقلبا بين الجد واللعب(١٠) . ونظرة ابن خلدون هذه جاءت من اهتمام الناصر بالطيور وتربيتها فهو يعيب عليه ذلك . وهكذا نرى ان كل مؤرخ يصور الناصر من وجهة نظره رغم ان عددا منهم لم يعاصر الناصر ولم يراه وهو بعيد عنه اما زمانيا أو مكانيا . الا ان آراء المؤرخين رغم اهميتها لا تمنع من القول بأن الناصر من مشاهير الخلفاء وأكثرهم تحسسا بمصائب الامة الاسلامية عامة والعباسية خاصة وانه عمل جهده لتخليص بغداد من السيطرة الاجنبية السلجوقية والى بعث الروح الكفاحية والدم الجديد في كيان دولته العباسية التي انهكتها مشاكلها الداخلية والخارجية على عهد من سبقه من خلفاء ضعاف .

وكان الناصر من محبي العلم والادب مشجعا لهما فبنى المدارس وانشأ الربط والمكتبات واوقف لهما فبنى المدارس وانشأ الربط(١١) والمكتبات واوقف الكثير من كتبه الخاصة للفائدة العامة . وقد الف الناصر كتابا في الحديث اسمه « روح العارفين »(١٢) . ولكن ليس هذا كل ما ألّفه الناصر بل يذكر ابن خلدون « أنه كان متفننا في العلوم وله تآليف في فنون منها متعددة »(١٣) . ويذكر ابن الطقطقي « انه صنّف كتبا »(١٤) . ويذكر المقريزي أن كتاب روح العارفين ، الذي لم يوفق الباحثين في العثور عليه ، قد شاع أمره وان الناصر سيّر كتابه هذا الى الشام ومصر وغيرها ليسمع(١٥) . وقرىء هذا الكتاب كذلك في جوامع بغداد وغيرها من البلاد وانتشر وروي في الآفاق وسمع(١٦) .

كان الناصر من المتحسسين بأوضاع الامة الاسلامية الحرجة لذا اهتم بتربية الشباب وبث الروح الاسلامية فيهم للدفاع عن الخلافة ضد تحركات الخارجين عليها والمعادين لها . وقد اهتم الناصر وابتدع ، ان جاز التعبير ، نظام الفتوة التي جعل لها اصولا وانظمة خاصة وقد تبعه في الانضواء تحت ظل نظام الفتوة الصغار والكبار في أكثر ارجاء البلاد الاسلامية . وكانت بداية الفتوة في سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م . ويبدو ان الذي دفع الناصر لذلك هو ما لاحظه من كثرة مطامع الاجانب الدخلاء في اراضي العرب والمسلمين فالسلاجقة من الشرق والصليبيين من الغرب فضلا عن حركات التمرد والعصيان التي كانت تقوم بها بعض الامارات والاقاليم ضد الخلافة العباسية فراى ان لا أمل في احياء العلم الاسلامي وايقاظه الا بالفتوة لاحياء السنة الاسلامية والتقاليد العربية فأعتبر الفتوة المنار في ذلك وأحسن ما يتبع .

توفى الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م بعد ان قضى في الخلافة مدة تقرب من سبع واربعين سنة بين ٥٧٥ – ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ – ١٢٢٥ م . اما عمره حين وفاته فقد قارب السبعين حيث انه ولد ، كما سبقت الاشارة ، في حدود عام ٥٥٣ هـ /١١٥٨ م . اما فيما يتعلق بسبب وفاته فقد ذكر ان الناصر اصابه ، بعد ان اشتد عليه المرض ، العمى في اواخر أيامه . ويبدو ان العمى اصاب احدى عينيه وان الثانية ضعف البصر فيها(١٧) . وانه اصيب بامراض تتعلق . بجهازه التناسلي حيث تكون له حصى وحدث له عسر بول واجريت له بعض العمليات الجراحية في محاولة لاستخراج هذا الحصى حيث شق ذكره عدة مرات وانه مات بسبب هذا المرض الذي يطلق عليه مؤرخونا القدماء اسم الدوسنطاريا(١٨) ، او مايعرف اليوم بالديزانتري

(٥) ابن الساعي ، مختصر اخبار الخلفاء ، ص ١١٠ .
(٦) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٩ .
(٧) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص٢٥٧ .
(٨) ابن الساعي ، مختصر اخبار الخلفاء ، ص١١٠ .
(٩) ابن الشحنه ، روض المناظر ، ص ٨٢
(١٠) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص١١٠٢ .
(١١) جمع رباط وهو مكان للنسك والعبادة .
(١٢) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص٢٨١ .
(١٣) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص١١٠٢ .
(١٤) ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ٢٥٧ .
(١٥) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ح١ ، ق١ ، ص ١٨٠ .
(١٦) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٢٨١ .
(١٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ح٨ ، ق٢ ، ص٦٣٥ ؛ وانظر الذهبي ، دول الاسلام ، ح٢ ، ص٩٤ ؛ ابن الوردي ، التاريخ ، ح٢ ، ص١٤٦ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١١٠٢ .
(١٨) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ح٢ ، ص١٤٦ ؛ ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ح٣ ، ص١٣٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ح١٢ ، ص ١٨١ .

او البول الدموي . وقد حدث هـذا المرض للناصر او بالاحرى أصيب به رغم اهتمامه واعتنائه الشديد بصحته حيث يروي لنا السيوطي عن شمس الدين الجزري ان الماء « الذي كان يشربه الناصر تأتي به الدواب من فوق بغـداد بسبعة فراسخ ويغلى سبع غلوات كل يوم غلوة ثم يحبس في الاوعية سبعة أيام ثم يشرب منه »(١٩) . ولكن هذه العناية الفائقة لم تغني عنه لا من المرض ولا من الموت شيئاً اذ كان الرفيقان له بالمرصاد .

ثانيا : علاقـات الخلافـة العباسـية بالدولة الخوارزمية

قبل الخوض في هذه العلاقات لابد من اعطاء فكرة ولو موجزة عن الدولة الخوارزمية ونشأتها . قامت هذه الدولة في بلاد خوارزم التي تقع في اواسط آسية وتنتسـب الدولة الخوارزميـة مـن حيث التأسيس الى محمد بن انو شتكين الذي كان مملوكا ساقيا عند السلطان ملكشاه السلجوقي وبعد وفاة ملكشاه قربه السلطان سنجر السلجوقي ابنه وحكم بأسمه ثم خلفه ابنه اتسز الذي عزم على الاستقلال وتصادم مع السلاجقة وحارب سنجر سنة٥٣٣هـ/١١٣٩ م ولما توفي اتسز سنة ٥٥١ هـ/١١٥٦ م ورثه ابنه ايل ارسلان فتوفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م فخلفه ابنه علاء الدين تكش الذي لعب دورا كبيرا في القضاء على السلاجقة سنة ٥٩٠ هـ /١١٩٤ م .

يبدو ان الخوارزميين رسموا لدولتهم سياسة خاصة قائمة على التوسـع على حسـاب الدول المجاورة لهم والتي أخذ الضعف يدب فيها فبعد ان استولوا على املاك الدولة السلجوقية بعد ضعفها اصبح الباب مفتوحا امام الخوارزميين للسيطرة على كثير من المناطق دون ان يلقوا مقاومة شديدة بل وحتى اذا وجدت مثل هذه المقاومة فهي ليست بالدرجـة التي يخشى منها . وهكذا بعد ان ملكوا بلاد السلاجقة اخذوا يفكرون بل وطبقوا ذلك عمليا في توسيع دولتهم على حساب الخلافة العباسية الواقعة في الغرب والغوريين في جنوبهم والخطا الى الشرق منهم . وهـذا ولّد نقمـة هذه الدول على الخوارزميين والتي كانت الدولة الخوارزمية تريد ازالتها وتشكيل امبراطوريـة كبيرة من ممتلكاتها . ومما هـو واضح ومعروف ان الدولة العباسية ظلت تحت السيطرة السلجوقية حتى وفاة السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م . ولما فكر الخليفة الناصر بالقضاء على السلاجقة ورفع هيبة الخلافة ، التي اقتيدت منذ وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ/٨٤١ م برغبات الاجانب عن البلاد ، رأى ان كثرة مشاكله الداخلية وكذلك الخارجية تجعله في وضع حرج و صعب لا يؤهله للقيام بهجوم على السلاجقة لذا وجد ان الاستعانة بطرف آخر قوي حل مقبول . ولم تكن القوة القادرة على اداء هـذا الدور الا قوة الدولة الخوارزمية ، لذا ارسل الى علاء الدين تكش خوارزم شـاه يحثه على قتال طغرل الثالث آخر السلاطين السلاجقة ويعده بأن يقطعه ما بيده من البلاد اذا انجز هـذا الامر(٢٠) .

ومن الجدير بالذكر ان الخلافات كانت قد نشبت بين الاخوين اللذين اقتسما المملكة الخوارزمية بعـد وفاة ابيهما ايل ارسلان بن اتسز وهما سلطان شاه وعلاء الدين تكش خوارزم شاه ، وهذا ممـا دفع الاخير الى التصالح مع طغر لبك آخر سلاطين السـلاجقة ليتفرغ لحرب اخيه سلطان شاه(٢١) . ولما نجح تكش في ذلك وتسلم بلاد الري وسـائر مملكـة اخيه وخزائنه عظم شأنه(٢٢) . فلبى رغبة الخليفة الناصر في الحال لأن طلب الخليفة الناصر هو ما كان يتمناه تكش حتى تحاط توسعاته واطماعه بظل من الشريعة الخليفية وهكذا تحرك علاء الدين تكش باتجاه الغرب لمساعدة الخليفة ظاهرا والتوسع على حساب ممتلكاته باطنا فالتقى بالجيش السلجوقي بقيادة طغر لبك في الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة ٥٩٠هـ(٢٣) / ١٩ آذار ١١٩٤م قرب مدينـة الري فقتل طغرل الثالث . وبذا سيطر الخوارزميون على أملاك السلاجقة شرق العراق بطريقة شـرعية بموافقة الخليفة العباسي الناصر لدين الله لأنه وعدهم بذلك كما تقدم .

ولكن هل حدّ هـذا الكسـب من اطمـاع الخوارزميين ؟ كلا بل طلبوا السيطرة على بغـداد واحلال اسمهم محل اسلافهم السلاجقة في خطبة الجمعـة ونقش اسمهم الى جـوار اسم الخليفة على النقود بل الادهى من ذلك طلب خوارزم شـاه تكش من الخليفة الناصر ان يعيد بنـاء دار السلطنة في بغـداد الى ما كانت عليه أيام السلاجقة حتى اذا ما زار تكش بغداد وخلعت عليه الخـلع الخليفيـة اقام فيها واصبح الخليفة تحت يده(٢٤) . وهـذا

---

(١٩) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٩ .

(٢٠) ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ق١ ، ص ١٨٢ .
(٢١) ابن الوردي ، تاريخ ، ج٢ ، ص١٠٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩ .
(٢٢) ابن الوردي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ١٠٩ – ١١٠ .
(٢٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٩ .
(٢٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٢ .

يؤكد لنا مارسمه الخوارزميون لأنفسهم من سياسة توسعية على حساب الدول المجاورة حتى لو كانت الدولة العباسية نفسها رئيسة العالم الاسلامي الذين هم منه ويخطبون بأسم خليفتها . اما رد الناصر فكان الرفض لأنه ما كان يأمل بالخلاص من دار سلطنة السلاجقة ، التي هدمها سنة ٥٨٣ هـ /١١٨٦ م بعد ان جاءه رسول طغرل الثالث يطلب منه تجديدها للنزول فيها ، حتى يضع نفسه ودولته تحت حجر آخر ووصاية أخرى خوارزمية قد تكون اقسى واشد قسرا من الوصاية التي سبقتها خاصة وان التوسع هو شعار القوة الخوارزمية لذا رد الناصر رسول خوارزم تكش منكرا على سيده ما طلب(٢٥) .

دفع رفض الخليفة الناصر تكش الى التخطيط والعزم على غزو بغداد لينفذ بالقوة ما عجزت سفارته عن تنفيذه فتجهز الناصر لذلك واستعد وفضلا عن استعداده العسكري المحلي حرّك قوة اسلامية اخرى ضد الخوارزميين الا وهي الدولة الغورية(٢٦) . اذ ارسل الى ملكها ، الذي يدين بالخطبة للناصر ، غياث الدين يحثه على مهاجمة الدولة الخوارزمية من الشرق حتى يرغم قادتها على الانصراف عن سياستهم العدائية ضد الخلافة العباسية في الغرب فأرسل غياث الدين بدوره رسالة الى تكش يقبّح فيها فعلته بالتعرض للخليفة واملاكه ومركز حكمه بغداد(٢٧) . وهنا وجد تكش نفسه في حيرة بل ورطه وقد وقع بين طرفي كماشة من الشرق ومن الغرب فرأى ان الحل الامثل هو الاستعانة بطرف آخر ليسانده لالهاء طرف من الطرفين المعاديين له حتى يتفرغ هو للطرف الآخر فأتجه نحو الخطا فحرضهم على الغوريين متهما هؤلاء بأنهم يريدون الاستيلاء على ممتلكات الخطا وقد نجح التدبير فعلا فهوجمت الدولة الغورية من قبل الخطا سنة ٥٩٢ هـ /١١٩٥ م ولكن الخطا انهزموا امام الغوريين فرموا تبعة هزيمتهم على الخوارزميين لانهم دفعوهم لحرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل فطلبوا على هذا الاساس تعويضا خياليا تعجيزيا عن خسائرهم من الخوارزميين عن كل قتيل عشرة الاف دينار(٢٨) . ولما كان ابن الاثير يذكر بأن عدد قتلى الخطا بلغ اثنا عشر الفا فمعنى هذا ان التعويض سيصل الى حد مائة وعشرين مليونا من الدنانير وهذا رقم خيالي مبالغ فيه جدا ويثير الشك بالرقمين ، عدد القتلى والتعويض .

ويبدو ان هذه الهزيمة دفعت الخوارزميين ولو لفترة قصيرة الى ترك سياسة العداء السافر للخلافة العباسية . وقاموا بمحاولات لتحسين علاقتهم بالدولة الغورية التي اشترطت عليهم تحسين علاقتهم بالخلافة واطاعتهم للخليفة والكف عن اعمالهم العدائية تجاهه(٢٩) ، فأضطر الخوارزميون الى الاعتراف بسيادة الخليفة العباسي فما كان من الناصر الا ان ارسل الهدايا والخلع الى علاء الدين تكش معترفا له بالسيادة على ما بيده من البلاد الاسلامية(٣٠) . وهنا توجه تكش الى الخطا للضغط عليهم وصقلهم فحاصر بخارى وملكها منهم . ولما كان تكش اعور العين اذ فقد احدى عينيه في الحرب حيث انه كان يباشر الحروب بنفسه (٣١) ، اخذ اهل بخارى كلبا أعورا في مدة الحصار والبسوه قباء(٣٢) وقالوا للخوارزميين هذا سلطانكم ورموه بالمنجنيق اليهم فلم يؤاخذوهم بذلك (٣٣) بينما يقول الحنبلي صاحب الشذرات ان تكش قتل خلقا أي عددا كبيرا من الخطا (٣٤) . ويبدو ان حركات تكش ضد الخطا قد حظيت بمساندة الخليفة ورضاه لموقفهم المعادي له ولحلفائه كما تقدم. وقد استمرت العلاقات حسنة بين الخوارزميين والخلافة العباسية والغوريين حتى وفاة تكش في رمضان من سنة ٥٩٦ هـ حزيران ١٢٠٠ م ، حتى ان غياث الدين الغوري حين بلغه موت تكش ضرب النوبة(٣٥) ثلاثة ايام وجلس للعزاء مع ماكان بينهما من العداوة(٣٦) الا ان موت تكش كان حافزا لغياث الدين كي يستولي في السنة التالية على ما كان لتكش بخراسان(٣٧) ، مستغلا فترة الركود التي اعقبت وفاة تكش والخلافات بين علاء الدين وابن أخيه هندو خان ولكن علاء الدين لم يلبث ان استرجع ما اخذه غياث الدين في السنة التالية(٣٨) .

---

(٢٥) اليافعي ، مرآة الجنان ، ح٣ ، ص ٢٤٦ .
(٢٦) تاسست في الافغان والهند . مركزهم غزنه وفي الهند لاهور (في الباكستان الحالية) . حكمت الدولة الغورية بين ٥٤٣ – ٦١٢هـ/١١٤٨ – ١٢١٥م .
(٢٧) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص٦٣ .
(٢٨) المصدر السابق ، ح١٢ ، ص٦٤ .

(٢٩) ابن خلدون ، العبر ، ح٥ ، ق١ ، ص٢٠٥ .
(٣٠) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص٧٢ .
(٣١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ح٦ ، ص١٥٥ .
(٣٢) نوع من الثياب جمعه اقبية .
(٣٣) ابن الوردي ، تاريخ ، ح٢ ، ص١١٢ .
(٣٤) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ح٤ ، ص ٣١٦ .
(٣٥) النوبه يقصد بها مراسم العزاء .
(٣٦) ابن الوردي ، تاريخ ، ح٢ ، ص ١١٦ .
(٣٧) المصدر السابق ، ح٢ ، ص ١١٧ .
(٣٨) المصدر السابق ، ح٢ ، ص ١١٩ .

ان وفاة تكش سنة ٥٩٦ هـ /١١٩٩ م أي بعد سنة من تحسن العلاقات بين الخوارزميين من جهة والعباسيين والغوريين من جهة اخرى كان نذير شؤم في العلاقات بين الطرفين وبشكل اكثر وضوحا بين الدولتين الخوارزمية والعباسية اذ جاء الى الحكم فى خوارزم ابن تكش علاء الدين محمد الذي كان يعرف قبل توليه السلطة بأسم قطب الدين محمد وقد أصبح وليا لعهد ابيه بعد وفاة ولي العهد ملكشاه ابن تكش سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٦ م(٣٩). فجرى نزاع بين علاء الدين محمد وابن اخيه هندو خان فالتجأ هذا الى غياث الدين ملك الغورية يستنصره على عمه فأكرمه ووعده النصره(٤٠) . وكانت بين قطب الدين محمد واخيه ملكشاه عداوة مستحكمة(٤١) . ولما جاء علاءالدين محمد الى عرش الدولة الخوارزمية وكان كما يبدو متشبعا بالاراء التي آمن بها الخوارزميون من قبل الا وهي غزو بغداد لذا فأنه لم يتردد في التخطيط لذلك فطلب من الخليفة الناصر اكثر من مرة اقامة الخطبة له في بغداد ولكن الناصر أبى ذلك وانكره عليه واعلن ان الخلافة لن تقبل ان يتحكم فيها المتحكمون ثم قال الخليفة لمجير الدين رسول علاءالدين محمد « أوليس فيما أنعم عليه به من الممالك الواسعة والاقاليم المتباعدة المتشاسعة غنية عن الطمع فى دار ملك أمير المؤمنين ومشاهد ابائه الراشدين »(٤٢) . وحين عاد رسول علاءالدين ارسل معه الخليفة الناصر رسوله شهاب الدين السهروردي علّه يثني علاءالدين عن محاولته غزو بغداد(٤٣) . خاصة وان احتمالات الغزو ازدادت عما كانت عليه قبل فشل السفارة الخوارزمية .

اما الاسباب التي دعت الخوارزميين الى التفكير بغزو بغداد جديا فهي :ـ

١ ـ الرغبة الخوارزمية بالتوسع على حساب املاك الخلافة العباسية .

٢ ـ ان التعاون الذي حصل بين الدولتين العباسية والغورية ولّد الشك عند الخوارزميين ، وهم محقون في شكهم ، بأن العباسيين هم الذين دفعوا الغوريين للهجوم على الخطا حلفائهم ورفض الغوريين لاراء الخوارزميين بالتصدي للخلافة العباسية ومهاجمتها .

٣ ـ شعور الخوارزميين بأن الناصر هو الذي حرض ويحرض كل من أتابكي فارس وأذربيجان وكذلك الاسماعيلية للتصدي للقوة الخوارزمية والاعتداء على ممتلكاتها شرق العراق . وهذا صحيح الى حد كبير حيث ان من أهداف الناصر اضعاف القوى الكبيرة المهددة للخلافة بفتح الثغرات وخلق الاعداء لها لتترك الخلافة وشأنها . اما الاسماعيلية فان علاقتهم مع العباسيين في عهد الناصر قد تحسنت لدرجة كبيرة حتى ان صاحب قلعة الموت الشهيرة جاء الى بغداد واستقبل بحفاوة معلنا الولاء والخطبة للخليفة . ومما زاد اعتقاد الخوارزميين بعلاقة الناصر بالاسماعيلية هو حادث اغتيال أغلمش نائب الخوارزميين فى العراق(٤٤) ، بايعاز من الخليفة(٤٥) ، لذا نرى علاء الدين يسارع للسيطرة على هذه المناطق او الجيوب الملغمة ويحكم سيطرته عليها قبل ان تخرج من يده نهائيا فيهزم الاتابك سعد صاحب اتابكية فارس وازبك بن البهلوان صاحب أذربيجان فتعهد كل منهما بالخطبة للخوارزميين على منابر بلاده(٤٦) .

٤ ـ لعب العامل المذهبي ، كما يبدو ، دوره في دفع علاءالدين لغزو بغداد فقد اعتنق هذا المذهب الشيعي فأراد ازالة الخلافة العباسية واحلال خلافة علوية محلها واستطاع ان يجمع رجال دولته وفقهائها وقضاتها وان يحصل على قرار منهم بشرعية عزل الخليفة العباسي لأن العباسيين اغتصبوا الخلافة من العلويين اصحاب الحق الشرعي فيها وقد أجمع المجتمعون على ذلك ووصفوا الناصر لدين الله بالقاتل لانهم يعتقدون بأنه اوعز بقتل أغلمش نائب الخوارزميين في العراق العجمي . ونصب علاءالدين شخصا علويا اسمه علاء الملك وخطب له على منابر الدولة الخوارزمية وسك أسمه

---

(٣٩) المصدر السابق ، ح٢ ، ص ١١٢ .
(٤٠) المصدر السابق ، ح٢ ، ص ١١٦ .
(٤١) المصدر السابق ، ح٢ ، ص ١١٢ .
(٤٢) النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، ص١١
(٤٣) قابل السهروردي علاءالدين خوارزم شاه في مدينة همذان وهو في طريقه الى غزو بغداد . وكان الناصر يثق بالسهروردي . وهو ينتسب الى قرية سهرورد باقليم زنجان الا انه عاش في بغداد وتربى فيها .

(٤٤) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ١٩٠ .
(٤٥) النسوي ، سيرة منكبرتي ، ص ١٣ .
(٤٦) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ١٤٥ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ، ح٢ ، ص١٣٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، صص ١٠٩٩ ـ ١١٠٠ .

على السكة(٤٧) ، بعد ان قطع خطبة الخليفة الناصر فى انحاء الدولة الخوارزمية وذلك سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م(٤٨) .

٥ ــ نجاح الخوارزميين في القضاء على اعدائهم الغوريين اذ احتلوا حاضرة دولتهم غزنة . وتمكنوا من اضعاف شأن الخطا واخضاع أتابكي فارس واذربيجان ، كما تقدم ، وانكمش الاسماعيلية فى قلاعهم وحصونهم فلم يبق الا الخليفة العباسي . وهكذا نشأت فكرة غزو بغداد وتعززت . وبدأ علاءالدين بتنفيذها في سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م .

أما ما الذي فعله الخليفة الناصر ازاء ذلك فهذا ما تضاربت فيه الاقوال والروايات فمما لاشك فيه انه استعد استعدادا كبيرا وصرف الكثير من الاموال على التحصينات وخزن المواد الغذائية وسد الثغرات في الاسوار وتسليح الجيش . الا ان الناصر رغم الاستعداد لم يدخر وسعا فى حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية فأرسل رسوله شهاب الدين السهروردي في محاولة منه لاثناء علاءالدين عن عزمه على غزو بغداد فلاقى علاءالدين فى همذان وهو في طريقه الى بغداد وذلك سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م ولما دخل السهروردي على علاءالدين لم يحترمه بل أهانه وأوقفه الى جانب تخته(٤٩) ولم يأذن له بالقعود(٥٠) ويقول السهروردي في ذلك « سلمت عليه فلم يرد ولا أمرني بالجلوس فشرعت فخطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بني العباس ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين ، والترجمان يعيد عليه قولي فلما فرغت قال للترجمان : قل له هذا الذي وصفته أما هو فى بغداد ؟ قلت نعم ، قال : أنا اجيء واقيم خليفة يكون بهذه الاوصاف ثم ردنا بغير جواب »(٥١) . وهذا يبين لنا مدى تعالي علاءالدين واستهزائه وسخريته بالخلافة والخليفة ومما لا شك فيه كان لقوة علاءالدين وخضوع كثير من الامراء له وشعوره بضعف الخلافة أثرا كبيرا في غطرسته وغروره . وهكذا عاد رسول الخليفة يجر أذيال الخيبة والفشل دون الحصول على جواب شاف .

أما علاءالدين فقد استمر فى عزمه على غزو بغداد لانه ، كما يرى ابن خلدون ، كان يبعث في الخطبة الى بغداد ولا يجاب .، فسيَّر جيشه وقدَّم أميرا في خمسة عشر الف فارس واقطعه حلوان فنزلها ثم اتبعه بأمير آخر(٥٢) . ولكن علاءالدين ما أن تحرك عن همذان باتجاه بغداد حتى اضطر الى العودة لاسباب اهمها هبوب العواصف الثلجية على مسيرة يومين من همذان خاصة وان تحركه كان فى اواخر الخريف واوائل الشتاء فسقط عليهم الثلج وكادوا يهلكون(٥٣) . وذلك اثناء عبورهم أحدى المناطق الجبلية في العراق العجمي(٥٤) . وكان من أثر هبوب هذه العواصف ان أهلك البرد كثيرا من الرجال والدواب(٥٥) ، خاصة وان هذه العواصف الثلجية استمرت عشرين يوما(٥٦) . اما من بقى من الخوارزميين فقد تخطفتهم قبائل الاتراك والاكراد فى هذه البقاع(٥٧) . بنو برجم من لتركمان وبنو عكا من الاكراد(٥٨) . وهكذا قدر للجيش الخوارزمي ان يباد وهو في الطريق والا يعود منه الى خوارزم الا القلّة قليلة(٥٩) . وكانت العودة في سنة ٦١٥هـ/١٢١٨ م .

لقد فسر البعض ما حل بجيش علاءالدين بأنه غضب من الله لأنه أبى اطاعة الخلافة وقصد شرا بدار الخلافةوالخليفة المؤيد من الله والملائكة(٦٠) .

(٤٧) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ح٣ ، ص ١٠١ .
(٤٨) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، صص ١٠٩٩ ــ ١١٠٠ .
(٤٩) كلمة فارسية معناها اللوح من الخشب . انظر ادي شير ، الالفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٠٨ ، ص ٣٤ والمقصود بالتخت هنا كرسي العرش أو هيئته أو مجلسه .
(٥٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهره ، ح٦ ، ص٢١٩
(٥١) المصدر السابق ، ح٦ ، صص ٢١٩ ــ ٢٢٠ .
(٥٢) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١١٠٠ .
(٥٣) المصدر السابق .
(٥٤) يقول لسترنج : ان البلاد الجبلية الواسعة التي سماها اليونان ميدية (ماذي) الممتدة من سهول العراق والجزيرة في الغرب الى مفازة فارس الملحية الكبرى في الشرق ، قد سماها البلدانيون العرب اقليم الجبال . ثم بطل استعمال هذا الاسم ، وصار الاقليم ايام ملوك السلجوقيه يعرف غلطا بعراق العجم ، وقد سمي بذلك تمييزا له عن عراق العرب وهو ما يعرف به القسم الاسفل مما بين النهرين . انظر كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، بغداد ، مطبعة الرابطة ، ١٩٥٤ م.
(٥٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ح٦ ، ص٢١٩ .
(٥٦) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .
(٥٧) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ١٤٦ .
(٥٨) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص١١٠٠ .
(٥٩) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص١٤٦ .
(٦٠) النسوي ، سيرة منكبرتي ، ص ٢١ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .

وهذا من دون شك دافعه العامل الديني والعاطفة الدينية فضلا عن السذاجة والتفسيرات الغيبية . ولكن الواقع ان النقطة المهمة ، عدا العواصف والثلوج ، التي لعبت دورا فعالا فى عودة علاءالدين الى بلاده هي ظهور قوة جديدة فتية على مسرح الاحداث في الشرق اخذت تتحرش بالدولة الخوارزمية تلك هي القوة الترية او المغولية بقيادة جنكيز خان والتي كان التوسع والفتح شعارها الامثل .

بدأ ظهور المغول او التتر فى سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩م وهم من أجناس الترك(٦١) . ومساكنهم جبال طمغاج من ارض الصين واستولوا على كثير من بلادالاسلام وكانوا لايدينون بدين الا انهم يعترفون بالله تعالى من غير اعتقاد شريعة فملكوا الصين وكان ملكهم يقال له جنكيز خان(٦٢) ، من قبيلة تعرف ب « نوحي »(٦٣) ، ثم ساروا الى تركستان وكاشغر فملكوهما(٦٤) . وهكذا أخذ نجم المغول بقيادةجنكيز خان يعلو ويرتفع وهناك بعض المؤرخين يرون بأن الضغط الذي كان يلاقيه الخليفة الناصر لدين‌الله من الخوارزميين دفعه الى الاستعانة بالمغول ضد علاءالدين . والان ارى من لضروري مناقشة هذه النقطة بشيء من الاسهاب .

يقول ابن الاثير « ولو كان سبب ما ينسبه العجم اليه [الى الناصر] صحيحا من انه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم »(٦٥) . ويقول ابو الفدا « قيل انه هو الذي كاتب التتر ليشغل بهم خوارزم شاه عن العراق »(٦٦) . ومثل ذلك يقول ابن الوردي(٦٧) . اما ابن خلدون فيقول « يقال انه [الناصر] الذي اطمع التتر فى ملك العراق لماكانت بينه وبين خوارزم شاه من الفتن »(٦٨) . في حين يقول المقريزي « فى خلافته خرب التتر بلاد المشرق حتى وصلوا الى همذان وكان هو السبب في ذلك فانه كتب اليهم بالعبور الى البلاد خوفا من السلطان علاءالدين محمد خوارزم شاه »(٦٩)

لو تمحصنا الاشارات السابقة وناقشناها لأهملناها جميعا باستثناء رواية المقريزي لان الاربعة الذين سبقوه ليسوا متأكدين فكل بدأ كلامه ، المعاصر منهم والمتأخر ، ب « قيل » و « يقال » « لوكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا » ومثل هذه الصيغ الموضوعة في اطار يلفه الشك لايمكن الاطمئنان اليها والقياس عليها. اما رواية المقريزي فتبدو كأنها اطلقت من متأكد رغم انه توفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م والحادثة سنة ٦١٦هـ/١٢٢٠هـ اي ان المقريزي متأخر عن الحادثة أكثر من قرنين وربع القرن وفضلا عن هذا البعد الزماني فالمقريزي بعيد مكانيا اذ عاش فى مصر . ولا اظن ان هناك من يقول ان المؤرخين الاربعة الذين مر ذكرهم خافوا من الخلافة ان تعاقبهم على ما يكتبون ان قدحوا في خليفة فهذا غير وارد لانهم عدا ابن الاثير عاشوا بعد سقوط الخلافة العباسية ومع البعد الزمني بعد مكاني ايضا حيث لم يعيشوا في بغداد اما ابن الاثير فهو بعيد مكانيا كذلك وان كان معاصرا من حيث الزمن للخليفة الناصر علما بأن كتاباته لا تدلل على اعجاب او تعاطف مع الناصر الا انه رغم ذلك كان دقيقا في روايته علميا قدر الاستطاعة فلم يكل التهم جزافا .

ويقول هارولد لامب ، وهو من المؤرخين الاوربيين المحدثين ، ان الخليفة الناصر عرض على جنكيز خان استعداده لمهاجمة الدولة الخوارزمية من الغرب ان هاجمها هو من الشرق . واما طريقة تقديم هذا العرض فهي طريفة لدرجة كبيرة ، فلما كان لابد لرسول الخليفة ان يمر فى بلاد خوارزم قبل ان يصل لجنكيز خان فقد احتاط الخليفة الناصر لهذا الموضوع فوشمت الرسالة على رأس الرسول بعد ان حلق شعر رأسه وبعد كتابتها ترك الشعر ينمو فضلا عن ذلك استظهر الرسول الرسالة ولما وصل الى جنكيز خان رددها عليه ولكي يبرهن على صحة ما قاله اخبره بقصته فحلق شعر رأسه وقرئت الرسالة على الحاضرين(٧٠) . ان ما جاءنا به لامب لا سند تاريخي له اذ انه لم يذكر المصدر الاولي الذي استقى منه هذه الطريفة فضلا عن ان الرواية تحمل بذور الشك بصحتها معها وبين طيات اسطرها . ويؤكد لامب بان جنكيز خان لم يهتم لامر الرسالة ويحتمل قويا ، كما يرى لامب ، بأن الرسول الفريد فى بابه والكتاب الخفي لم يؤثرا في جنكيز خان التأثير الحسن ثم ان هناك العقد التجاري الذي تم بينه وبين الشاه خوارزم(٧١) . ومن هذا نرى بان

---

(٦١) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١١٠١ .
(٦٢) المقريزي ، السلوك ، ح١ ، ق١ ، ص ٢٠٤ .
(٦٣) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١١٠١ .
(٦٤) المقريزي ، السلوك ، ح١ ، ق١ ، ص٢٠٤ .
(٦٥) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ١٨١ .
(٦٦) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ح٣ ، ص١٣٦ .
(٦٧) ابن الوردي ، تاريخ ، ح٢ ، ص ١٤٦ .
(٦٨) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١١٠٣ .
(٦٩) المقريزي ، السلوك ، ح١ ، ق١ ص ٢١٨ .

(٧٠) هارولد لامب ، جنكيزخان ، ص ٩٠ .
(٧١) المصدر السابق ، ص ٩١ .

رسالة الخليفة حتى وان صح ارسالها فهي لم تؤثر التأثير المطلوب من كتابتها .

ولكن لو فتشنا عن الدافع الرئيس الذي دفع جنكيز خان لمقاتلة خوارزم شـاه لوجدناه في مقتل عدد من رسل الأول في حضرة الثاني ، حيث ان جنكيز خان ارسـل بعض التجار الى ارض خوارزم فألقى (اي نال جودق) حاكم أترار وهي قلعة من قلاع الخوارزمية فى الحدود القبض عليهم بحجة انهم جواسيس للمغول يتزيون بزي التجـار وينتحلون صفتهم فصادر أموال قافلتهم واعتقلهم ثم أمـر علاءالدين خوارزم شاه ، بعد ان جيء بهم اليـه ، بقتل المشتبه بهم ثم اطلق سراح الباقين بعد ان احرق ذقونهم فلما علم جنكيز خان بالامر اعتزل في الجبال لوحده متأملا الحادث مستوحيا فوجد بأن قتل رسـول مغولي امر لا يغتفر وان الفاعل يجب ان يعاقب . وقال « لايمكن ان تكون هناك شمسان فى السـماء وكذلك لا يجوز ان يكون هناك خاقانان على وجه الارض . وارسل جنكيز خان الى شاه خوارزم رسالة مما جاء فيها قـوله « انت الذي أخترت الحرب ولا مرد للقدر واننا نجهل العاقبة وعلمها عند الله وحده » . وهكذا بدات الحـرب بينهما فأغار التتر على املاك خوارزم فأستولوا على بلاد ما وراء النهر(٧٢) . واستولى المغول على بخارى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ونهبوا كنـوزها واشعلوا النـار فيها فأحترقت ولم يبق من مبانيها الا تلك المبنية من الاجر ، حيث كان اغلبها مبني من الخشب ، واخيرا نزح اهلها او ماتبقى منهم الى أقليم خراسان . ثم زحف جنكيز خان الى سمرقند حاضرة بلاد ما وراء النهر وكانت من اعظـم المدن التجارية وكانت حاميتها تتألف مـن اربعـين الف فارس(٧٣)، وقيل بل من خمسين الفا(٧٤) . الا انها لـم تستطيع مقاومة السـيل الجارف فخضعت وبانهيار بلاد ما وراء النهر انهارت اهم اجزاء الدولة الخوارزمية ، وكذلك استولى المغول على ما في يد علاءالدين محمد من خراسان وبلاد الجبل(٧٥) . اما علاءالدين فقد دب اليأس في نفسه فقرر الابتعاد عن مسرح الاحداث والتجأ الى جزيرة صغيرة فى بحر قزوين لا تبعـد كثيرا عن ساحل مازندران فأختفى بهـا شهرا الى ان مات فيها سنة ٦١٧ هـ/١٢٢١ م حيث دفن(٧٦) ، بعـد ان ملك لمدة واحد وعشرين سنة(٧٧) . ثم استولى المغول على الري ووضعوا ايديهم على ما فيها من كنوز ونفائس . واتجهوا الى همذان ولكن صاحبها عرض عليهم الصلح والهدايا فأمنت من الخراب(٧٨) .

حل محل علاء الدين محمد ولده جلال الدين منكبرتي الذي بدأ الكفاح ضد المغول لاعادة التماسك الى دولته المنهارة فاستطاع ان يحصل على تأييد ومساندة بعض الامراء فجمع له جيشا وبدأ بحركة التحرير لأرضه المحتلة وأيده فى ذلك ، كرها بالمغول، اتابك فارس سـعد بن زنكي وكذلك امـراء غزنة وفارس وكرمان وخراسان ومازندران ، وهكذا عاد نفوذ الخوارزميين الى الحياة سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م، حيث ملك منكبرتي عراق العجم وعظم امره حتى خافه الخليفة ببغـداد(٧٩) . ومما ساعد منكبرتي على ذلك انشغال المغول بمشاكلهم ، والقـوة التي تكونت لدى الخوارزميين ولما كان هـؤلاء في حالة اقرب الى اليقين من ان للخلافة العباسية دورا في نكبتهم على يد المغـول قررو الانتقام منها اذ جاء في رسالة من منكبرتي الى المعظم عيسى صـاحب دمشق ، يحثه فيها على غزو بغـداد ، قوله « تحضر انت ومن عاهدني فنتفق حتى نقصد الخليفة فانه كان السـبب فى هلاك المسلمين وفى هلاك ابي وفي مجيء الكفار الى البلاد ووجدنا كتبـه الى الخطا وتواقيعه لهم بالبلاد والخلع والخيل » فرد عليـه المعظم « أنا معك على كل احد الا على الخليفة فانه امام المسلمين »(٨٠) الا ان رد المعظم لم يثن منكبرتي عن عزمه بغزو بغـداد فسار بجيشه في سنة ٦٢٢ هـ /١٢٢٥ م الى اقليم خوزستان (الاحواز الحالي) الذي كان تابعا للخليفة(٨١) ، وحاصر عاصمته تستر الا انه فشل في احتلالها ولكن جنده نهبوا ماحواليها وعاثوا فيه فسادا . وقد رحل بعد فشل الحصار فدخل العراق فنهب وقتل(٨٢) . وسار فى طريقه

(٧٢) ابن الوردي ، تاريخ ، ح٢ ، ص ١٣٨ .
(٧٣) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٨ .
(٧٤) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ١٦٥ .
(٧٥) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١١٠١ .

(٧٦) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ص ١٧١ – ١٧٢ .
(٧٧) ابن خلدون ، العبر ، ح٣ ، ق٥ ، ص ١١٠١ .
(٧٨) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ١٧٢ .
(٧٩) ابن الشحنة ، روض المناظر ، ص ٧٩ .
(٨٠) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ح٦ ، ص‌ص ٢٦٠ – ٢٦١ .
(٨١) المقريزي ، السلوك ، ح١ ، ق١ ، ص‌ص ٢١٥ – ٢١٦ .
(٨٢) الحموي ، التاريخ المنصودي ، ص ٣٠٦ .

الى بغـداد فلما وصل الى قرية بعقوبا وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ صعق الناس وانزعج الخليفة الناصر لدين الله وكان اذ ذاك مريضـا اذ أصيب فى آخر عمره بضعف في بصره مع ارتخاء في بدنـه وكذلك اصيب بالديزانتري او الزحار او ما أسماه الاوائل بالدوسنطاريا ، ورغم ذلك فقد استعد الخليفة للحصار(٨٣) . ووضع جنـده على اهبة الاستعداد(٨٤) . وحصن بغـداد فنصبت المجانيق وحصنت الاسـوار وانفق الناصر في العساكر ألف الف دينار(٨٥) .

ولكن منكبرتي لم ينجح في حربه ضد الخليفة لافتقاره للتأييد المعنوي من ناحية وطول المسـافة مما اجهد جيشه كثيرا خاصة حربه مع خوزستان التي انهكت قـواه من ناحية ثانية فضلا عمـا سمعه من استعدادات الخليفـة ومناصريه فقـد كانت جيوش الخليفة بقيادة جلال الدين قشـتمر الذي سـار على رأس جيش تعداده عشرون الف كمـا ارسـل الناصر الى امير اربل رسالة يحملها حمام زاجل يطلب منه ان يسرع اليه على رأس عشرة الاف مقاتل لمهاجمة مؤخرة الجيش الخوارزمي وقطـع سبيل الرجوع عليهم . ولما وجد منكبرتي ان جيوشه اضعف من جيوش الخليفة وان قوة الخليفة تحركت وبانت أعلن انه لم يأت معاديا انما طالبا الرضا من الخليفة بسبب ظروف الامة الإسلامية وهجوم المغول. ولكن قشتمر لم يثق بادعاء منكبرتي بل طارده الا انه قتل في المعمعة ولما انتشر الخبر بين جند الخلافة تخلوا عن المعركة بعد ان انكسرت روحهم المعنوية فانقلبت الاوضاع الى صالح منكبرتي فتابع هـذا جيش الخليفة حتى ابواب بغداد . ولكن الانتصار لم يغر منكبرتي الا بالعمل على الاتفاق مع الخليفة والتهادن معه بسبب سـلطته الدينية من ناحيـة واستغلال سلطاته الشرعية لصالحه وليكسب تأييد العامة وهكذا ارسـل الى الناصر رسولا يعاتبه على عدائه للخوارزميين فاكرمه الخليفة الناصر واعاده الى ملكه « موفور الحظ من الانعام جزيل القسط من النايل العام »(٨٦) . فانصرف منكبرتي عن املاك بني العباس يوسع نفوذه على حساب المناطق الاخرى المجاورة له . وهكذا تخلصت الخلافة العباسية من خطر الخوارزميين بعد ان جسدت علاقاتها الطابع العسكري الحربي الا ان هذا الطـابع لم يخـل من بعض السفارات والدبلوماسيات الخائبة التي لم تلق النجاح والتوفيق في اغلب مهماتها .

ثالثا : علاقـات الخلافـة العباسـية بالسلاجقة

قبل الكلام عن العلاقات العباسية ـ السلجوقية لابد من اعطاء لمحـة موجزة عن السلاجقة ونشأتهم .

السلاجقة فرع من قبائل الغز انسابو حوالي ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م من سهول التركستان وسكنوا بلاد ما وراء النهر(٨٧) . واعتنقوا الدين الاسلامي وفق المذهب الحنفي الـذي اخـذه التـرك عـن السامانيين حيث سـاد فى دولتهم(٨٨) . وقد سموا بالسلاجقة نسبة الى جدهم الاعلى سـلجوق بن دقاق . ولما انهارت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ /٩٩٩ م توسع السلاجقة على حسابها فتصادموا مع الغزنويين فانتصر عليهم ودخـل طغرلبـك عاصمتهم سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م واعلن نفسـه سلطانا . وتعتبر هذه السنة بداية لتاريخ السلاجقة السياسي(٨٩) واستمر السلاجقة في نمو وتطـور حتى وصلت قوتهم الى درجة اضطرت الخليفـة العباسي القائم للاستعانة بهم فى تخليص العراق من البويهيين فدخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م فبدأ نفوذ السلاجقة على الخلافة الذي دام أكثر من مائة عام وانتهى بصورة شبه فعلية سنة٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م حين توفي السلطان مسعود في عهد الخليفة المقتفي الا ان نفوذهم الاسمي على الخلافة العباسية ظل حتى سنة ٥٩٠ هـ /١١٨٤ م .

أخذ الضعف والخور يدب في جسـم الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان مسعود ومما زاد في هذا الضعف وفاة آخر سلطان سلجوقي من سلاجقة ايران الذين يعرفون بالعظام الا وهو سنجر سـنة ٥٥٢ هـ /١١٥٦ م ، وهكذا اخذت الدولة السلجوقية تسـير مترنحة نحـو الهاوية مما شـجع امـراء الاقاليم على الانفصال والاستقلال بما تحت ايديهم خاصة الاتابك ارسلان ايلدكز الذي كان يسيطر على اغلب اذربيجان وقد ارتفع شأنه بعـد مقتل

---

(٨٣) المقريزي ، السلوك ، ح١ ق١ ، ص٢١٦ .
(٨٤) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ١٩٥ .
(٨٥) الذهبي ، دول الاسلام ، ح٢ ، ص ٩٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ح٦ ، ص ٢٦٠ .
(٨٦) النسوي ، سيرة منكبرتي ، ص ١٠٩ .

(٨٧) ابن العميد ، تاريخ المسلمين ، ص ٢٦٧ .
(٨٨) بارتولد ، تاريخ الترك في آسيا الوسطى ، ص ١٠٨ .
(٨٩) حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص٥٢

السلطان سليمان شاه بن طغرل بن محمد سنة ٥٥٦هـ /١١٦٠ م . فدفعت هذه الحال الامراء الى طلب تولي ارسلان بن طغرل بن محمد سلطانا على السلاجقة وهو ابن زوجة ايلدكز فنزل همذان وخطب له بالسلطنة وكان محمد جهان بهلوان ابن ايلدكز اخ ارسلان بن طغرل لأمه وهكذا أصبح ايلدكز الحاكم الفعلي فلم يكن لارسلان الا الاسم والخطبة(٩٠) . واستمر نفوذه قويا حتى توفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢م فصار ابنه جهان بهلوان محله وسيطر على اخيه ارسلان حتى توفي الاخير سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥م(٩١)، فخلفه ابنه طغرل وهو في السابعة من عمره(٩٢) ، فأنقاد لصغر سنه وطفولته لعّمه جهان بهلوان يساعده اخيه قزل ارسلان ولما توفى جهان سنة ٥٨٢ هـ /١١٨٦ م خلفه اخيه قزل في كفالته(٩٣) .

ولما شب طغرل قرر الخروج من الحجر فجمع له قوة واحتل بعض المناطق وهكذا ملك طغرل بن ارسلان كثيرا من البلاد وارسل قزل بن ايلدكز الى الخليفة يستنجده ويخوفه عاقبة امر طغرل(٩٤) . فامده الخليفة الناصر بجيش على امل ان يسير قزل بجيش آخر لحربه ولكن جيش الخليفة وصل قبل ان يصل جيش قزل ويتهيأ فأضطر جيش الخليفة للاشتباك مع طغرل مما ترتب عليه هزيمة منكرة لجيش الخليفة وذلك عام ٥٨٣ هـ /١١٨٧ م . وبعد هذا الانتصار قويت نفس السلطان طغرل بن ارسلان فأرسل الى بغداد طالبا اعمار دار السلطنة والخطبة له وان يرفع له الشأن مما اثار حفيظة الخليفة الناصر لدين الله فأصدر أمره بهدم دار السلطنة واخرج رسول طغرل مهانا بلا جواب(٩٥) . وهكذا اكد الناصر عزمه على ازالة الآثار السلجوقية المهينة .

لم تثن انتصارات طغرل وخضوع كثير من الامراء له قزل ارسلان عن سعيه فى محاربته وفعلا توجه قزل سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م على رأس جيش انجده الخليفة الناصر بجيش آخر وصل همذان لمدافعة طغرل عن بلاد الخلافة ولما شعر طغرل بأنه سيقع بين طرفي كماشة انحاز الى همذان ظنا منه بانها الجبهة الاضعف فدارت رحى الحرب بين طغرل وجيوش الخليفة التي وصلتها نجدات قزل فتبادل الجانبان المتحاربان النصر والهزيمة مرات عديدة حتى وقع السلطان طغرل في نهايتها أسيرا بيد قزل ارسلان فأعتقله هذا فى قلعة باذربيجان قريبة من تبريز(٩٦) . فجاء الب ارسلان بن السلطان طغرل الى بغداد في السابع من محرم سنة ٥٨٦ هـ /١٤ شباط ١١٩٠ م وهو صبي صغير وعليه كفنه وبيده سيف مشهور كأنه يطلب العفو من الخليفة على فعل ابيه فنزل عند باب النوبي(٩٧) وقبّل العتبة فبكى أهل بغداد ورق له قلب الخليفة وانزله دار ابن العطّار مقابل المخزن واكرمه وأحسن نزله وعفا عن فعل ابيه واستدعاه الى باب الحجرة وخلع عليه خلع السلطنة وطوقه بطوق من ذهب واجتمع الب بولي العهد ابي نصر محمد(٩٨) .

تعاظمت قوة قزل ارسلان بعد اعتقاله لطغرل فأستولى على ماكان بيد طغرل من بلاد ودخل العاصمة همذان .(٩٩) واخذ قزل يفتش عن سلطان للسلاجقة يضعه كرمز لذر الرماد في العيون فوقع نظره على سنجر بن سليمان شاه فأخرجه من السجن ونصبه سلطانا ثم لم يلبث ان خلعه لما اتته موافقة الخليفة الناصر على ان يتولى هو ، اي قزل، عرش السلطنة السلجوقية فأعلن قزل نفسه سلطانا فى عام ٥٨٧ هـ/١١٩١ م(١٠٠) وهذا يعد انقلابا له معناه ومغزاه فى العلاقات العباسية ــ السلجوقية فبعد ان كان السلطان يعين الخليفة ويخلعه او على الاقل يستشار في تعيينه نجد هنا العكس فالخليفة اخذ يعين السلطان السلجوقي ويخلعه ويعطيه التقليد بذلك . وهذا ما كان يجب ان يكون اذا اخذنا العامل الديني ينظر الاعتبار ومركز الخليفة كزعيم ديني

---

(٩٠) ابن الاثير ، الكامل ، ح١١ ، ص ١٠٨ .
(٩١) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ، ص ٣٠١ .
(٩٢) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢ .
(٩٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ح٦ ، ص ١٣٤ .
(٩٤) ابن الاثير ، الكامل ، ح١١ ، ص ٥٦٠ ؛ ابن الوردي ، تاريخ ، ح٢ ، ص ٩٨ .
(٩٥) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٢٨١ .
(٩٦) الراوندي ، راحة الصدور ، ص٥٠٠ ؛ الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٨٠ .
(٩٧) باب كبير من ابواب دار الخلافه ببغداد الشرقية يقال له باب العتبة لان الملوك والامراء والرسل كانوا يقبلونها عند دخولهم الى دار الخلافة ، انظر ناجي معروف ، تاريخ علماء المستنصرية ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢٤ .
(٩٨) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، ح٨ ، ق١ ، ص ٤٠٠ .
(٩٩) الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٥٠٢ .
(١٠٠) يبدو ان الناصر خلع ارسلان بن طغرل الثالث من السلطنة واجازها أو قلدها لقزل لانه من مسانديه وضد منافسيه . انظر الراوندي ، راحة الصدور ، ص٣٦٣

ودنيوي للأمة الاسلامية . ولكن قزل لم يبق في السلطنة كثيرا اذ ان سوء سلوكه وشربه الخمر وكثرة سكره كرّهته في عين زوجته أينانج خاتون التي هي زوجة أخيه المتوفى جهان بهلوان فأغرت بعض غلمانه بقتله فقتلوه وهو سكران(١٠١) ويعلل الراوندي سبب مقتله بأنه سوء سلوكه مع زوجته وانصرافه عنها فدبرت هذه المؤامرة لقتله يؤازرها ولدها قتلوغ اينانج بن جهان بهلوان(١٠٢) .

وكان مقتل قزل ارسلان صاحب النفوذ الكبير والسيطرة القوية ، سنة ٥٨٧ هـ /١١٩١ م بداية للنزاع على السلطة بين الامراء الصغار وهذا التنازع والانشغال به فسح المجال امام السلطان طغرل للهرب من حبسه ونجح فى جمع الجيوش من بعض الامراء ولما وفق في ذلك هزم من عارضه من الامراء خاصة ابن عمه وقائد خصومه قتلوغ بن جهان بهلوان قرب قزوين ثم رجع الى همذان وتربع على عرشها ثانية فتقدم اليه الاتباع بالخضوع والسلطان(١٠٣) ومن هذا يبدو لنا ان خروجه كان مدبرا من قبل الامراء الذين عارضوا سلطنة قزل ارسلان الا انهم كانوا لا يجرأون على ذلك في حياته فتشجعوا على ذلك عند مماته فأستغلوها فرصة واخرجوا طغرل من محبسه ، وكان ذلك سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وقد استطاع طغرل ان يتم سيطرته على المناطق المجاورة له والتي يوجد بها عدو له فهاجم مدينة الري التي تحصن فيها قتلوغ ابن عمه يساعده في ذلك تكش خوارزم شاه فحاصر طغرل المدينة واستولى عليها سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٤ م ثم عاد الى عاصمته همذان الا ان الحرب لم تلبث ان وقعت بين طغرل وتكش حاكم خوارزم انتهت بانتصار طغرل وقتل عدد كبير من جيش تكش(١٠٤) ، مما ولد الحقد فى قلب خوارزم شاه تكش فأخذ ينتهز الفرص لأخذ ثأره من طغرل وقد أتيحت له الفرصة عندما ارسل له الخليفة الناصر رسالة يطلب منه مساعدته فى محاربة طغرل ويعده بأن يقطعه كافة الاراضي التي سيستولى من طغرل في العراق العجمي(١٠٥) ولما كانت الدولة الخوارزمية ذات مطامع توسعية في املاك جيرانها من الدول رحبت بفكرة الخليفة الناصر ولبتها في الحال وهكذا سار الجيش الخوارزمي فى سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م بقيادة علاءالدين تكش باتجاه الغرب لمحاربة السلاجقة فالتقى جيش طغرل بن ارسلان بجيش خوارزم وكانت معركة شديدة والقى طغرل بنفسه فى وسط المعركة وكان على ما يبدو مغرورا بقوته الجسمانية الا انه لم يلبث ان تراجع فجأة واصبح وحيدا في وسط اعدائه(١٠٦) ، فاحاط به جند تكش والقوه من على فرسه وقتلوه(١٠٧) واخذوا رأسه الى رئيسهم حيث اهداه تكش الى الخليفة فعلقه بباب النوبي ببغداد عدة أيام وأرسل الخليفة الخلع والتقليد الىالشاه تكش ملكخوارزم وهمذانوغيرها من البلاد الشاسعة . ويقول الاربلي ان مقتل طغرل كان بتدبير من وزير الخليفة الناصر محمد بن القصاب(١٠٨) .

وكان مقتل طغرل الثالث ايذانا بأنتهاء الدولة السلجوقية كما كانتوفاةالسلطانمسعود السلجوقي بداية النهاية لهذه الدولة فأستولى الخوارزميون على املاكها ولكن هذا الاستيلاء لم يحد من طمعهم بل وجهوا نظراتهم وسيوفهم نحو الخلافة العباسية رمز الوحدة الاسلامية .

ومما سبق نرى ان العلاقات بين العباسيين والسلاجقة كانت قائمة على اساس السيف والقوة وما هي الا امتداد لتلك العلاقات المتوترة بين الجانبين منذ دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ /١٠٥٥م والتي يغلب عليها طابع العنف والحرب اكثر مما يغلب عليها الطابع الدبلوماسي الهادىء .

رابعا : العلاقات العباسية الايوبية

قامت الدولة الايوبية سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م بعد وفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد ولكن صلاحالدين بن ايوبخطبللخليفة العباسيالمستضيء قبل ان يلاقي العاضد ربه اذ كان مريضا . اما مجيء الايوبيين الى مصر فقد كان بناءا على استنجاد احد وزراء العاضد بنور الدين زنكي أمير الدولة

(١٠١) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٨١ ؛ الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٥٠٢ .
(١٠٢) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٨١ .
(١٠٣) الراوندي ، راحة الصدور ، ص ص ٥٠٢ - ٥٠٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ٤٤ .
(١٠٤) الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٣٦٦ .
(١٠٥) ابن خلدون ، العبر ، ح٥ ، ق١ ، ص ١٨٢ .
(١٠٦) البنداري الاصفهاني ، مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٣٠٣ .
(١٠٧) الراوندي ، راحة الصدور ، ص ٥١٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص ٥٠ .
(١٠٨) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٢٨١ .

الزنكية(١٠٩) . فأرسل له اسدالدين شيركوه يقود جيشا لنجدته ومعه ابن اخيه صلاح‌الدين ، فصار شيركوه وزيرا للعاضد وبعد ان توفي في السنة نفسها خلفه ابن أخيه صلاح‌الدين فى منصبه وزيرا ثم أستغل فرصة مرض العاضد وضعف الخلافة الفاطمية والتأييد المعنوي والمادي الذي يلقاه من العباسيين والزنكيين فقطع خطبة العاضد وجعلها بأسم الخليفة العباسي المستضيء وذلك سنة ٥٦٧هـ /١١٧١ م وظلت العلاقات بين الدولتين العباسية والايوبية حسنة وكذلك الحال بين الايوبية والزنكية خاصة حين كان نور الدين زنكي على قيد الحياة اذ كان صلاح‌الدين يرغب فى ابقاء ما بين الدولتين من صلات قوية سابقة لذا فأنه كان يخطب للخليفة العباسي ثم لنور الدين زنكي ثم لنفسه باعتباره سلطانا لمصر والشام .

ولما تولى الناصر لدين الله الخلافة في ذي القعدة ٥٧٥ هـ/ نيسان ١١٨٠ م بعد وفاة ابيه المستضيء وكان رسول السلطان صلاح‌الدين حاضرا عند البيعة فحضر وبايع وأخبر بجليه الحال فبادر السلطان الى الخطبة له في جميع البلاد التابعة له . ويقول المؤرخ ابو شامة بان رسولا من قبل الناصر جاء الى مصر في ٥٧٦ هـ / ١١٨١ م فأخذه السلطان معه الى الحج ورحب به أكرم ترحيب(١١٠) . وقد بعث الخليفة الناصر الى صلاح‌الدين عند توليه الخلافة الخلع والتقاليد وكتب اليه السلطان كتابا مما جاء فيه قوله « والخادم ولله الحمد يعدد سوابقه فى الاسلام والدولة العباسية لا يعمرها اولية ابي مسلم لانه والى ثم وارى ولا آخرية طغرلبك لانه نصر ثم حجر والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداءها واساغ الغصة التي أذخر الله للاساغة في سيفه ماءها فرجّل الاسماء الكاذبة الراكبة على المنابر واعز بتاييد ابراهيمي فكسر الاصنام الباطنية بسيفه الظاهر »(١١١)

وقد حمل هذه الهدايا والخلع شيخ الشيوخ(١١٢) صدر الدين ابو القاسم عبدالرحيم ومعه شهاب الدين بشير الخاص مع التفويض والتقليد والتشريف الجديد . ويقول ابو شامة « فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد وركب السلطان للتلقي وعلى صفحاته بشائر الترقي فلما تراءى له الرسل الكرام ووجب لهم الاجلال والاعظام نزل وترجل وابدى الخضوع وترجل ونزل الرسل اليه وسلموا عن أمير المؤمنين عليه فتقبل الفرض وقبل الارض ثم ركبوا ودخلوا المدينة »(١١٣) . يجسد لنا قول ابي شامة ، وهو معاصر للاحداث اذ كان قاضيا لعسكر صلاح‌الدين ، مدى مكانة الخليفة الناصر في نفس صلاح‌الدين ومدى احترام هذا للخلافة العباسية وتبجيله لها وشعوره بسمو منزلة الخليفة . وهكذا نراه يقدم فروض الطاعة والولاء لرسل الخليفة باعتبارهم ممثلي الخليفة وما تقديره للرسل واستقباله لهم بهذا المنظر المهيب الا دليل على احترامه للخليفة والخلافة .

احتوت خلع الناصر لصلاح‌الدين على اثواب مذهبة واوعية لحفظ هذه الثياب وكذلك جواد أصيل من ممتلكات الخليفة الخاصة عليه سرج موشى بالذهب والفضة وغير ذلك من الهدايا الثمينة، فركب السلطان بالخلع وزينت له دمشق(١١٤) . وكان يوما عظيما(١١٥) .

وفي نفس السنة التي قدمت فيها الخلع من الناصر وهي سنة ٥٧٦هـ/١١٨١م توفي صاحب الموصل سيف‌الدين غازي بن مودود بن زنكي فخلفه أخوه عزالدين مسعود بن مودود وجاء رسول مجاهد الدين قايماز نائب عز الدين مسعود ومن قبله اخيه سيف الدين غازي الى السلطان صلاح الدين يطلب منه ان يكون مع عزالدين كما كان مع اخيه سيف الدين من ابقاء سروج والرها والرقة وحران والخابور ونصيبين في يده الا ان السلطان رفض وقد صارت هذه المناطق له بموافقة الخليفة ، خاصة وان الخليفة لم يول عليها سيف الدين غازي الا بعد ان اشترط عليه ان يقوي ويمد السلطان بالمساعدات العسكرية عند الحاجة(*) . وهذا يبين

---

(١٠٩) اسسها عمادالدين زنكي الذي قتل ٥٤١هـ / ١١٤٦ م فخلفه ابنه نورالدين الذي وحد البلاد الشامية تحت سيادته بما فيها دمشق وحلب وحمص وحماه وكان صلاح‌الدين وعمه شيركوه تابعين لنور الدين امير الدولة الزنكيه .

(١١٠) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٣٦ .

(١١١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٠ .

(١١٢) وظيفة دينيه مهمتها النظر في بعض المؤسسات الدينية والاجتماعية مثل الخوانق والربط ومؤسسات الصوفية والزهاد والمنقطعين الى الله من الرجال والنساء ، انظر ناجي معروف ، تاريخ علماء المستنصرية ، ص٣٣٦.

(١١٣) ابو شامه ، الروضتين ، ح٢ ، ص ١٩ .

(١١٤) كان اخذ صلاح‌الدين لدمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥م دون حرب . انظر ابن شداد ، سيرة صلاح‌الدين ، ص٥٠ .

(١١٥) ابو شامه ، الروضتين ، ح٢ ، ص ١٩ .

(*) ابو شامه ، الروضتين ، ح٢ ، ص ١٧ .

لنا ان الناصر كان يلجد او يمد صلاح الدين بالمساعدات العسكرية والجند بصورة غير مباشرة اثناء الحروب . وهكذا بعد ان توفي سيف الدين فوضت املاكه المشار اليها الى صلاح الدين بناء على طلب الأخير .

وفي سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ توفى الملك الصالح اسماعيل بن نورالدين محمود صاحب حلب(١١٦) . فقام من بعده ابن عمه السلطان عزالدين مسعود بن مودود بن زنكي حيث ان الملك الصالح استحلف الامراء على ان يصبح الامر من بعده لعزالدين صاحب الموصل(١١٧) . وكان موت الصالح هو المحرك للسلطان صلاح الدين على السفر وكتب الى ابن اخيه المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه وغيره من النواب بالتأهب فكاتب الخليفة الناصر يسأله ولاية حلب(١١٨) . فسارع عزالدين الى حلب خوفا من صلاح الدين فصعد الى القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها وتزوج أم الملك الصالح في الخامس من شوال سنة ٥٧٧ هـ/١١ شباط ١١٨٢ م وقرر عزالدين حفظا على ممتلكاته في الموصل ، اذ انه لا يستطيع الدفاع عن حلب والموصل فى آن واحد ، مقايضة اخوه عماد الدين حلب بسنجار وحلف عزالدين لأخيه عماد الدين على ذلك في الحادي والعشرين من شوال سنة ٥٧٧ هـ /٢٧ شباط ١١٨٢ م وسار من جانب عمادالدين من تسلم حلب ومن جانب عزالدين من تسلم سنجار. وفي ١٣ محرم سنة ٥٧٨ هـ /١٩ مايس ١١٨٢ م صعد عمادالدين الى قلعة حلب، مما دفع صلاح الدين الى حصار الموصل اياما ولما شعر بصعوبة الحصول على شيء منها بالمحاصرة ترحّل عنها(١١٩) ، خاصة بعد ان جاءه رسول من الخليفة الناصر يأمره بالترحل عنها(١٢٠) ثم نزل على سنجار ونجح في احتلالها سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢، ثم وفق في دخول حلب في السنة التالية .

وكان صلاح الدين قد فتح اليمن وسيطر عليها سنة ٥٦٩ هـ /١١٧٣ م وذلك بأن ارسل حملة بقيادة اخيه الاكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه حين سمع بوجود شخص باليمن اسمه عبدالنبي بن مهدي واله ملك حصون اليمن . وهكذا نجح صلاح الدين فى ضم اليمن الى ممتلكاته وخطب بها للخليفة العباسي المستضيء(١٢١) ومن بعده لولده الناصر ، وبذا خطب للخليفة العباسي الناصر بفضل فتوحات صلاح الدين في كل من مصر ومكة والمدينة واليمن والشام وكانت الخطبة في هذه المناطق للناصر اولا ولصلاح الدين ثانيا ، اذ ان نورالدين بن زنكي كان قد توفى سنة ٥٦٩ هـ /١١٧٤ م فضعفت دولته ، ولولي عهده واخيه ابي بكر سيف الدين الملك العادل ثالثا واخيرا(١٢٢) . وافتتح صلاح الدين كذلك حران وسروج وسنجار ونصيبين والرقة وخطب فيها للخليفة الناصر ايضا(١٢٣) .

وفي سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م كرر صلاح الدين حصاره للموصل وقد سارت فى خدمته ابنة الملك نورالدين محمود زوجة عزالدين صاحب الموصل وخضعت له فردها خائبه وحاصر الموصل فبذل اهلها نفوسهم وقاتلوا اشد قتال فندم وترحل عنهم لحصانتهم . ثم نزل على ميافارقين فأخذها بالامان ثم رد الى الموصل وحاصرها مرة اخرى ثم وقع الصلح على ان يخطبوا له وان يكون صاحبها طوعه وان يكون لصلاح الدين شهرزور وحصونها ثم رحل (١٢٤) ويبدو ان الخليفة الناصر لم يحل بين صلاح الدين والموصل كما فعل فى المرة السابقة اذ ان صلاح الدين اورد حججا للخليفة تبرر حصارها منها ان أهلها يواصلون الاعاجم اي السلاجقة ويخطبون لسلطانهم بل ونقشوا اسمه على الدنانير والدراهم وانهم يتعززون بالبهلوان ويعجزون الا عن الطاعة والأذعان وانهم يراسلون الافرنج ويقوون نفوسهم على قصد الثغور وتفريق الجمهور وانه ما جاء طمعا في استضافة ملك ولا استزادة ملك ولاقلع ثبت قديم ولا قطع أصل كريم وانما مقصوده الاصلي ومطلوبه الكلي ردهم الى طاعة الامام ونصرة الاسلام (١٢٥) وبعد ان احتلها طلب تقليده بلاد الارمن وديار بكر والموصل فجاءه التقليد بعد فتح ميافارقين (١٢٦) ويبدو ان صلاح الدين بعد مفارقته

(١١٦) ابن العبري ، مختصر الدول ، ص ٣٧٩ .
(١١٧) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص٥٥ ؛ ابو شامة ، الروضتين ، ح٢ ، ص٢١ .
(١١٨) المقريزي ، السلوك ، ح١ ، ق١ ، ص٧٧ .
(١١٩) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، صص ٥٥ ــ ٥٧ .
(١٢٠) الذهبي ، دول الاسلام ، ح٢ ، ص ٥٦ ؛ الحنبلي ، شذرات الذهب ، ح٣ ، ص ٢٥٩ .

(١٢١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٤٦ .
(١٢٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥ .
(١٢٣) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ح٤ ، ص ٢٥٩ .
(١٢٤) المصدر السابق ، ح٤ ، ص ٢٦٨ .
(١٢٥) ابو شامة ، الروضتين ، ح٢ ، ص ٦٢ .
(١٢٦) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، صص ٦٨ ــ ٧٠ .

للموصل مرض واشتد عليه المرض في حران حتى ارجفوا بموته وسقط شعر لحيته ورأسه(١٢٧) .

ان انتصارات صلاح الدين والخطبة للخلافة رفعته في عين الخليفة الناصر مما جعل العلاقة بين الشخصين قوية وودية طوال فترة حياة صلاح الدين وكذلك في حياة الناصر بعد وفاة صلاح الدين . وكان فتح صلاح الدين لبيت المقدس اثر معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م مدعما بتأييد وتشجيع الخليفة الناصر . وقد كتب صلاح الدين بعد انتزاعه بيت المقدس من الصليبيين لوحة علقها على باب المدينة المقدسة جاء فيها « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون والحمد لله الذي انجز وعده ونصر عبده واقام خليفته القائم بحق الله وسيد عترة رسول الله وعترة شجرته الطيبة ابا العباس احمد الناصر لدين الله امير المؤمنين اسبغ الله ظله على الاسلام والمسلمين وشد عضده بولده وولي عهده ابي نصر محمد عدة الدنيا والدين واعاد عليه تراثه واصار اليه ميراثه من البيت المقدس على رغم المشركين وهو المحمود الى أن اجرى هذا الفتح على يد محيي دولته وسيف نصرته والقائم بطاعته المخلص في عبوديته والمجاهد تحت رايته يوسف بن ايوب معين أمير المؤمنين »(١٢٨) . ان هذه اللوحة رغم عبارات الخضوع والتبعية الواضحة فيها تحتوي ايضا على نوع من التبجح والمباهاة يتجسد في جملة « محيي دولته » .

لا يستبعد ان تكون انتصارات صلاح الدين المتوالية قد سببت حرجا للخليفة الناصر اذا ما قيست بمشاكله الداخلية والخارجية ثم ان هذه الانتصارات لم ترافقها هدايا قيمة للخليفة بل على العكس هدايا وضعية اوجبت عتب الخليفة ولومه فضلا عن ان صلاح الدين لقب نفسه بلقب الناصر وهو لقب الخليفة . الا ان صلاح الدين رد على عتاب الخليفة مؤكدا ان امور الحرب قد شغلته عن التروي في ارسال الهدايا وعبر عن اعتذاره للناصر . واما تلقبه بلقب الناصر فقد اشار صلاح الدين الى انه ليس بجديد اذ سبق للخليفة المستضيء ان لقبه به قبل ان يحمله الناصر حين صار خليفة . وقد اورد المؤرخ القلقشندي عهد ديوان الانشاء ببغداد لصلاح الدين بتقليده مصر والشام واليمن والذي ورد فيه

(١٢٧) الذهبي ، دول الاسلام ، ح٢ ، ص ٦٧ ؛ الحنبلي ، شذرات الذهب ، ح٤ ، ص ٢٦٨ .
(١٢٨) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، صص ٢٨١ — ٢٨٢

تلقيبه بالناصر « ولما كان الملك الاجل السيد صلاح الدين ناصر الاسلام عماد الدولة جمال الامة » (١٢٩) الا ان صلاح الدين كما يبدو لم يتلقب بهذا اللقب في عهد المستضيء ولما جاء ولده الذي تلقب بهذا اللقب امتنع صلاح الدين عن حمله لما قد يسببه ذلك من كدر للخليفة الناصر الا ان تكدر الصلات بين الاثنين دفعت صلاح الدين الى التلقب به حيث يقول القلقشندي « كان الخليفة الناصر لدين الله متغيرا عليه [على صلاح الدين] حين تلقب بالملك الناصر لما في ذلك من مضاهاة لقب الخليفة » (١٣٠) لذا يمكن القول بان حمل اللقب كان فيه نوعا من التحدي للخليفة الناصر الا ان عتاب الناصر واحترام صلاح الدين وتقديره له دفعت صلاح الدين الى التروي في موقفه فاعتذر من الخليفة وتأدب معه غاية الادب مع غناة نفسه . (١٣١)

وفي محاولة من صلاح الدين لاعادة المياه الى مجاريها مع الخليفة ارسل له رسالة جاء فيها « يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » « ادام الله أيام المجلس السامي القوامي ادامة تؤذن بتشييد معاليه . وتشمل بيمنها وبركتها حاضر وقته وتاليه . وتؤيد من يواليه . وتخلد معها ناضر وقته وحاليه. ويتكافأ بها ترادف النصر وتواليه وتزينه بمحاسن الصفات وتحليه » ثم يعاتبه في هواده « في سالف الوقت قيل فيمن سارع للائم اليه واعجله رب ملوم لاذنب له وان كان — اعلى الله كلمته — اعنق في النصيحة واوضع . فقد انهر الجروح واوسع وربما بالغ الطبيب في اغراق المبضع فأوجع. واشتد الالم وان لم يلم » (١٣٢) . ولم تلبث الامور ان تحسنت وعادت الى سابق ما كانت عليه .

ومما يجدر ذكره ان صلاح الدين كان يبعث باخبار فتوحاته الى الخليفة الناصر بل كثيرا ما كان يتوسع في وصف المدن التي فتحها ومتانة اسوارها. .. الخ ويفهم من بعض رسائل صلاح الدين انه كان يستأذن الخليفة في بعض فتوحاته كما فعل في فتح أمد سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م اذ انه لم يحاصرها

(١٢٩) القلقشندي ، مآثر الانافه في معالم الخلافة ، ح٣ ، صص ٨٦ — ٨٧ .
(١٣٠) المصدر السابق ، ح٣ ، ص ٨٦ .
(١٣١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ح١٢ ، صص ٣٢٧—٣٢٨ .
(١٣٢) محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ، ح٣ ، ق١ ، صص ٧٨ — ٧٩ .

الا بعد ان استأذن من الخليفة الناصر بفتحها فأذن له بذلك . وسبق ان رأينا ان صلاح الدين كان لايعصى امرا للخليفة كما حدث عندما أمره بترك حصار الموصل الاول . ولم يكن صلاح الدين يفعل ذلك عن خوف بل عن احترام واجلال واعترافا منه بالمنزلة الروحية للخليفة عليه وعلى كافة المسلمين .

ان ما سبق يؤكد لنا مدى الارتباط الوثيق ولو من الناحية المعنوية بين الدولتين العباسية والايوبية ومدى الثقة المتبادلة والاحترام المتبادل ومدى حرص صلاح الدين على احاطة الخليفة علما بانتصاراته التي هي بلا ريب انتصارات للخلافة العباسية خاصة وان الأيوبيين يخطبون للخليفة على منابرهم . وهي توضح لنا في الوقت نفسه مدى حرص الخليفة على تتبع اخبار ساعده الايمن في الاجزاء الغربية لدار الخلافة . وهكذا نجد ان صلاح الدين بفضل التأييد الخليفي المعنوى والمادى احيانا حصل على الكثير من الانتصارات والشعبية فضلا عن انه اضفى على فتوحاته وانتصاراته طابعا من الشرعية والقدسية . وكان الخليفة يرسل احيانا بعض السفراء الى صلاح الدين لتقصي الاوضاع وتقديم المعونات للسلطان الايوبي خاصة فى اوقات الازمات .

من الملاحظ رغم العلاقات الودية بين الناصر لدين الله وصلاح الدين ان الاخير كان يتحاشى قدر المستطاع الاستعانة بجيش خليفي رغم حاجته الماسة لمثل هذا الجيش في اوقات الحرج التي تلاقيها دولته وهي كثيرة الاعداء . ويبدولى ان خشية صلاح الدين من تدخل هذا الجيش في شؤون دولته من ناحية مما قد يجر الى تصادم مع الخليفة وعدم رغبة صلاح الدين فى فتح مثل هذا الباب الذي لن يكون اغلاقه وقتذاك بسهل من ناحية ثانية خاصة وان الخليفة الناصر قوي الشكيمة طموحا ، هو الذى دفع صلاح الدين الى الاستعانة بجيوش امراء الاطراف التي لايرى صعوبة او حرجا شرعيا في قمع تحركهم وطموحاتهم ان سولت لهم انفسهم بتحرك او مطمع . ويبدو ان مايحس به صلاح الدين كان يتوارد على ذهن الخليفة فكان يتحاشى هو ايضا احراج موقف صلاح الدين وتكدير الصلات بينهما لذا نراه لايرسل جيشا لمساعدة صلاح الدين في احدى ازماته بل يرسل هدية رمزية عبارة عن حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين(١٣٣) وهكذا نجد ان الخليفة الناصر لا يخطو خطوة في علاقته مع صلاح الدين قد يستشعر منها الضغط والالزام أو التدخل بصورة علنية أو خفية بشؤون الدولة الصلاحية الايوبية . الا ان هذا لم يكن يمنع الناصر من ابداء العون الرمزي لساعده الايمن اوالسماح له بجمع تبرعات من الاهالي والتجار لمساندة الدولة لتقف على قدميها في مواجهة الازمات والاحوال المحرجة . الا ان صلاح الدين رفض بادب جمع التبرعات كما خوله الناصر وهذا يوضح لنا بأن حالة صلاح الدين ودولته من الناحية الاقتصادية جيده وغير مضيق عليها من ناحية وحساسية صلاح الدين ورغبته بعدم جعل المبلغ ، الذي خوله الناصر جمعه لانفاقه في الجهاد ضد الفرنج وهو عشرين الف دينار ، بمثابة دين عليه للناصر من ناحية ثانية .

لم تحل روح صلاح الدين الاستقلالية وتحسس الخليفة الناصر بها دون رغبة الاخير فى تثبيت سيادته الاسمية والدينية على الدولة الصلاحية فنراه في سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤م يعتب عليه لتأخره فى ارسال الرسل لدار الخلافة ويقترح تسيير القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ليحضر الديوان العزيز لتقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لابد منها فحدثت عند صلاح الدين فكرة في انفاذ رسول يسمع كلام الديوان فأرسل الضياء الشهرزوري وتوجه هذا الى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان ٥٨٠هـ(١٣٤) / ٣١ كانون الاول ١١٨٤ م للاستماع الى نصائح الخليفة الناصر ومطالبه .

واستمرت الصلات بين الناصر وصلاح الدين ودية طيبة حتى وفاة الاخير سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م بالحمى الصفراوية كما يقول قاضي عسكره ابن شداد (١٣٥)

ولما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل نورالدين علي وكان قد حلف له

---

(١٣٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ص ١١٨ — ١١٩.
(١٣٤) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، ص ٢٣٧ .
(١٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

العساكر جميعها غير مره في حياته فلما مات ابوه ملك دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وغيرها من بلاد الشام . وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بهـا . وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع اعمالها . وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمر فأطاع الظاهر وصار معه . وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل(١٣٦) وهكذا انقسمت المملكة الصلاحية بين اولاد صلاح الدين واخوته وكان عدد اولاده فقط سبعة عشر ولدا أكبرهم الملك الافضل(١٣٧) .

وقد ارسل الملك الافضل عند تسلمه للسلطة في دمشق الى بغداد رسول تصحبه لامة الحرب التي كانت لابيه صلاح الدين وفرسه ودينار واحد وستة وثلاثون درهما لم يخلف من المال سواها(١٣٨) وهذه الحادثة تؤكد لنا استمرار التبعية الايوبية للخلافة العباسية بعد وفاة صلاح الدين ولو مـن الناحية الاسمية والدينية .

سببت وفاة صلاح الدين مشاكل جمة لمملكته المترامية الاطراف والتي تجزات بفعل الارث اذ ان الصراع والاطماع بدات تلعب دورها بين الاخوة وابناء العم ليلتهم القوي منهم الضعيف . وقد القت هذه المشاكل بظلالها على بغداد حيث كانت الشكاوي تصلها باستمرار بشأن النزاع باعتبارها متبوعه لانها رئيسة العالم الاسلامي والمفوضه لهم بحكم البلاد التي تحت ايديهم من الناحية الشرعيه . ففي سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م اضطربت الامور في دمشق وحدث نزاع على السلطة فكتب الملك الافضل ، بعد ان اضطر لتسليم دمشق للعادل والعزيز ، الى الخليفة الناصر يستنصره ويشكوه عمه العادل ابا بكر واخاه العزيز عثمان صاحب مصر . ومما جاء في الشكوى :ـ

مولاي ان ابا بكـر وصـاحبـه
عثمان قد اخذا بالسيف حق علي

(١٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ح١٢ ، ص‌ص ٤٠ ـ ٤١ ؛ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٠ .
(١٣٧) ابو شامة ، الروضتين ، ح٢ ، ص ٢٢٤ .
(١٣٨) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠٠ .

فانظر الى حظ الاسم كيف لقي
من الاواخـر ما لاقى من الاول

فرد عليه الخليفة الناصر :ـ

واف كتابك ياابن يوسف معلنـا
بالصـدق بخير ان اصلك ظاهر
فاصبر فان غـدا عليه حسابهم
وابشر فناصرك الامام الناصر(١٣٩)

ويعلل أبو شامة الدافع الذي دفـع العـادل والعزيز الى الاستيلاء على دمشق بقوله ان الافضل كان « يقرب الاجانب ويبعد الاقارب »(١٤٠) ولم يكن رد فعل الخليفة الناصر قويا من الناحية العمليه كما كان من الناحية الشعرية القصائدية والدليل على ذلك حسن صلاته بالملك العادل الذي ارسل ، بعد وفاة العزيز صاحب مصر سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م واقامة ابنه المنصور الذي ثار العادل ضده وتملك مصر منه واقام بها الملك الكامل ، في سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م استاذ داره الامير الدكز العالي وقاضي عسكره نجم الدين خليل المهمودى الى الخليفة لطلب التشريف الخليفتي والتقليد بولاية مصر والشام فلما وصلا الى بغداد اكرمهما الخليفة الناصر لدين الله واحسن اليهما واجابهمـا الى الطلب وسير شيخ الشيوخ شهاب الدين ابا حفص عمر بن محمد بن عبدالله ابن محمد بن عموية السهروردي ومعه التشـريف والتقليد (١٤١) وخلع لاولاد العادل وهم الملك المعظم والملك الاشرف والملك الكامل وعندما قارب الشيخ ابو حفص حلب خرج الملك الظاهر بعساكره الى لقائه واكرم نزله (١٤٢) .

وبعد وصول هذه الخلع خوطب الملك العادل بالشاهنشاه ، أى ملك الملوك ، خليل امير المؤمنين(١٤٣) وهكذا صار الملك العادل سلطانا مقلدا (١٤٤) من قبل

(١٣٩) ابن الوردي ، تاريخ ، ح٢ ، ص‌ص ١١١ ـ ١١٢ .
(١٤٠) ابو شامه ، الروضتين ، ح٢ ، ص ٢٢٨ .
(١٤١) في التاريخ المنصوري للحموي ص ٢٦٢ : ابن سكر (بالسين) .
(١٤٢) الحموي ، التاريخ المنصوري ، ص ٢٦٢ ؛ المقريزي ، السلوك ، ح١ ق١ ص ١٦٧ .
(١٤٣) ابن الشحنة ، روض المناظر ، ص ٥٧
(١٤٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٧ .

الخليفة الناصر لدين الله وهذا يفرض عليه الالتزام بأوامر الخليفة ونواهيه . ولكن هذه ليست بقاعده فالالتزام يضعيف اذا شعر العادل بضعف الخليفة والعكس صحيح . ففي سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م حين خرج العادل من دمشق لمحاربة الكرج (١٤٥) وخرج معه ملوك بني ايوب المنصور صاحب حماه والمجاهد صاحب حمص والامجد صاحب بعلبك وارسل الظاهر غازى صاحب حلب جيشا . واتته نجدات من ولديه الاوحد والاشرف فلما استولي علىنصيبين ثم اراد الاستيلاء على سنجار بعث صاحبها قطب الدين محمد بن زنكي الى الخليفة الناصر لدين الله وبعض الملوك الاخرين يستنجد بهم على العادل فقدم رسول من الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك يطلب من العادل الرحيل قائلا له عن الخليفة الناصر « قال لك بحياتي ياخليل ارحل » (١٤٦) فكان رجاء لا امر فعاد العادل الى حران وتفرقت عساكره منفذا طلب او امر الخليفة الناصر .

واستمرت العلاقات بين العادل والناصرحسنه ودية الى ان مات العادل سنة ٦١٥هـ/١٢١٨مفخلفه ابنه ابو المعالى محمد الذي كان العادل قد استنابه في حكم مصر سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م . وكان الكامل فى حران فسلم ولايتها الى اخيه الفائز وسافر الى مصر وودع فى دمشق اخاه سلطانها الملك المعظم(١٤٧) وقد ارسل الخليفة الناصر رسوله ابن شيخ الشيوخ الى دمياط حيث الملك الكامل ابو المعالي وكان سبب بعث الرسول هو الباس الكامل ملابس الفتوه من قبل الناصر وان يرمي له البندق(١٤٨) ويكون هو اي الناصر قبلته في الرمي(١٤٩) واستمرت الصلات كذلك حسنة طيبة بين الكامل والناصر حتى وفاة الاخير سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م .

وبعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م اخذت الدولة الايوبية بالانهيار حتى سيطر المماليك على الوضع في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م .

وهكذا سادت علاقات الدولتين العباسية والايوبية روح الود والتعاون والاعتراف بالسيادة الدينيه للخليفة العباسي رغم القوة التي وصلتها دولة بني أيوب خاصة في عهد صلاحالدين مما عزز هذه العلاقات وارساها على اسس متينة قويه . وكان الناصر لدين الله يبادل هذا الاعتراف بتقدير واهتمام باحوال ساعده الايمن صلاح الدين فنراه يقوي علاقاته مع ملوك بني ايوب مقربا ومعتمدا على اقواهم واكثرهم نفوذا الا ان وضعه كخليفة لم يدفعه البته الى التدخل فى الشؤون الداخلية لدولة وملوك بني أيوب لذا كسب ود واحترام اغلبهم ان لم نقل كلهم . وكانت السفارات والدبلوماسيات تزيل كل ظل قاتم او سحابه تظلل هذه العلاقات الوديةبظلالها لتحجبها نور الشمس والتعاون .

---

(١٤٥) بفتح اوله وثانيه مدينة بين همذان واصبهان ، انظر حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج٣ ، ص ٤٢ .

(١٤٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص ٤٥ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٣٨ .

(١٤٨) كرات تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص او غيرها . وهي فارسية لفظا واستعمالا ، تستعمل في صيد الحمام ورميه . كان الناصر ولوعا بها يلبس لها سراويل خاصة تعرف بسراويل الفتوة . انظر جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج٥ ، ص ١٨٠ .

(١٤٩) الحموي ، التاريخ المنصوري ، ص ٢٧٧ .

ثبت المصادر

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٢٩٠ هـ .
(٢) الاربلي ، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، بغداد ، مكتبة المثنى .
(٣) بارتولد ، تاريخ الترك في اسيا الواسطى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
(٤) البنداري الاصفهاني ، مختصر تواريخ آل سلجوق ، ليدن ، ١٨٨٩ م .
(٥) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٦ م .
(٦) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ، ١٩٥٩ م .

(٧) حسن ، حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
(٨) حسين امين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ، ١٩٦٥ م .
(٩) الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، لاهور ، ١٩٣٣ م .
(١٠) الحموي ، التاريخ المنصوري ، موسكو ، ١٩٦٠ م .
(١١) الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، القاهرة ، مكتبة القدس ، ١٣٥٠هـ .
(١٢) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر ، بيروت ، ١٩٥٨ م .
(١٣) الذهبي ، دول الاسلام في التاريخ ، حيدر اباد الاكن ، ١٣٣٧ هـ .
(١٤) الراوندي ، راحة الصدور وآية السرور ، تعريب الدكتور ابراهيم أمين الشواربي وآخرون ، القاهرة ، مطبعة دار القلم ، ١٩٦٠ .
(١٥) زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن الاسلامي ، القاهرة ، دار الهلال . طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور حسين مؤنس .
(١٦) ابن الساعي ، مختصر اخبار الخلفاء ، القاهرة ، ١٣٠٩هـ
(١٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، حيدر اباد الدكن ، ١٩٥١م .
(١٨) سليم ، محمود رزق ، عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .
(١٩) السيوطي ، تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بامر الامة ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .
(٢٠) ابو شامه ، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ، ١٢٨٨ هـ .
(٢١) ابن الشحنه ، روض المناظر في اخبار الاوائل والاواخر ، على هامش كتاب الكامل لابن الاثير ح٩ ، القاهرة ، ١٢٩٠ هـ .
(٢٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ، القاهره ١٩٦٤ م .
(٢٣) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، القاهرة ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، ١٩٦٢م.
(٢٤) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، بيروت ، ١٨٩٠ م.
(٢٥) ابن العميد ، تاريخ المسلمين ، ليدن ، ١٩٢٥ م .
(٢٦) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، القاهرة ، المطبعة الحسينية .
(٢٧) القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، الكويت ، ١٩٦٤ م .
(٢٨) ابن كثير ، البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ، ١٩٣٢ م .
(٢٩) لامب ، هارولد ، جنكيزخان امبراطور الناس كلهم ، بغداد ، ١٩٤٦ م .
(٣٠) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، ١٩٣٤ م .
(٣١) النسوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ، انجي ، ١٨٩١ م .
(٣٢) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي أو تتمة المختصر في اخبار البشر ، القاهرة ، ١٨٦٨ م .
(٣٣) اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٣٨هـ .